تهادنت قيادة الوفد.. فتحالف المستضعفون

عندما تأسس الحزب الاشتراكى المصرى فى أغسطس ١٩٢١ سعى منذ اليوم الأول لميلاده لإيجاد نوع من التحالف بينه وبين حزب الوفد على أساس وحدة النضال المشترك ضد الاستعمار..

وربما بالغ الحزب فى تقديره للدور الوطنى لقيادة الوفد، ففى ١٤ ديسمبر ١٩٢١ أصدر الحزب «بيانا إلى الأمة» أعلن فيه اغتباطه بانقطاع المفاوضات «وحدد الحزب فى هذا البيان برنامجا من ثلاث نقاط لتوحيد النضال الوطنى ضد الاستعمار..

١- تضامن الصحافة على ترك مسائل الشقاق، والاقتصار على ما فيه خير البلاد.

٢- توحيد السياسة الوطنية بأن لا يقبل مصرى تأليف وزارة تعمل بأى شكل تحت هيمنة مشروع كيرزن.

٣- الاتفاق على تعيين خطة الجهاد الوطنى المشروع تحت لواء وكيل الأمة وزعيمها المخلص الأمين سعد باشا زغلول»[١].

ولقد كان هذا الموقف المتساهل محل انتقاد من جانب الحركة الشيوعية العالمية التى حددت موقفها من خلال مقال مهم نشره م. ن. روى[*] فى النشرة الرسمية للكومنترن بعنوان «الانقلاب السياسى فى مصر» جاء فيه:

«.. وهنا جاء دور سعد زغلول ليظهر على مسرح السياسة فأراد أن يستخدم الوضع الثورى الحاد فى البلاد ليفرض على إنجلترا مطالب الفئات التقدمية من ملاك الأرض والزراع والبرجوازية الكبيرة، وهى الفئات التى كان يمثلها والتى كانت مطالبها تفوق مطالب الإقطاعيين الرجعيين المتحالفين مع الملكية الفاسدة. لقد تكون الوفد المصرى بقصد المساومة مع الاستعمار البريطانى على استقلال مصر، ولكى يضمن مساندة الشعب الثائر كان على الوفد أن يتبنى المطالب التى تمثل ثورة الشعب.. لكن الاتفاق الذى تم بين الوفد المصرى بقيادة سعد زغلول وبين اللورد ملنر – وهو لا يختلف إلا قليلا عن التبعية التى قبلها ائتلاف (عدلى – ثروت) يثبت أن الوفد المصرى لم يكن جادا فى طرح تلك الشعارات فقد طرح هذه الشعارات فقط ضمانا للتأييد الشعبى».

«ولكن الحكومة البريطانية أزعجتها هبَّة الجماهير الثورية لدرجة أنها لم تدرك أن الصلة التى تربط بين قيادة الوفد والحركة الشعبية صلة مفتعلة. ولهذا اتخذت بعض الخطوات التى قوت تلك الصلة. فرفضت السماح للوفد بالسفر إلى إنجلترا، وهكذا صنع غباء الاستعمار من سعد زغلول بطلا شعبيا، بينما هو لم يكن يهدف إلا إلى الوصول – ومن خلال المفاوضات – إلى تسوية جزئية».

ويمضى روى محددا موقفا قاطعا من قيادة الوفد فيقول: «يتبين الأحداث السياسية الأخيرة سقوط التجمع الانتهازى، وتؤكد أن التاريخ قد جرد برجوازية المستعمرات من أى دور ثورى حق، والحقيقة أن عدم استعداد سعد زغلول لقيادة الكفاح الثورى عند عودته من لندن فى سبتمبر عام ١٩٢٠ يدل على أن حزب سعد زغلول قد استنفد دوره الثورى. ولم يمض وقت طويل حتى كانت القوى الاجتماعية الثورية ترفض قيادته. فقد رفض عمال السكك الحديدية القيام بإضراب عام دعا إليه سعد زغلول فى ديسمبر ١٩٢٠، وكان هذا الرفض أول دليل على التباعد بين القوى البرجوازية وبين قوى الثورة الجماهيرية وهكذا وفى النهاية سقطت القوى البرجوازية فى أحضان الاستعمار بعد أن حققت لنفسها طوال شهور حافلة نجاحا مثيرا.. وقد كان الكفاح الثورى التلقائى خلالها هو الذى يمنعها من أن تسقط هذا السقوط»[٢].

وكان لا بد لمثل هذه الأفكار أن تؤثر فى صفوف الحزب، الذى كان فى ذلك الحين يسعى للانضمام إلى الكومنترن.. وكان أيضا قد طهر صفوفه من كثير من العناصر

«المعتدلة» واليمينية.. فما إن تولى سعد زغلول رئاسة الوزراء فى ٢٨ يناير ١٩٢٤ حتى وجه له الحزب «خطابا مفتوحا» يتضمن ما يسمى فى الأدبيات السياسية «بالتأييد المشروط» فبدلا من المطالبة بـ«تعيين خطة الجهاد الوطنى المشروع تحت لواء وكيل الأمة وزعيمها المخلص الأمين سعد باشا زغلول» كما تضمن بيان الحزب إلى الأمة فى ديسمبر ١٩٢١، نجد أن الحزب يطالب الحكومة «بالاعتراف بنقابات العمال والفلاحين وبحقها فى الدفاع عن حقوق العمال والفلاحين الاقتصادية والاجتماعية والسياسية» كذلك طالب الحكومة بـ«حل مشاكل العمال العاطلين.. وبالاعتراف بحكومة السوفييت أسوة بالأمم المتمدينة»[٣].

وعلى أية حال فإن سعدا لم يعط فرصة لا للتحالف المشروط ولا غير المشروط فقد استخدم كل قبضته ونفوذه فى توجيه ضربة إلى الحزب.. وكان النجاح الأكبر للاحتلال وللرجعية المصرية هو استخدام سعد لأداء هذه المهمة غير النظيفة.

ولم يقتصر الأمر على قرار بالحل.. أو دفع كوادر الحزب إلى السجون، ولا على تعمُّد سعد أن يشرك قواعد حزبه فى المعركة ضد الحزب وأن يبذل جهد طاقته فى هذا الصدد.

فإن ذلك لم يكن كل الخطأ الذى ارتكبه سعد زغلول، ذلك أنه نهج بالفعل نهجا معتدلا بل ومتهادنا فى أغلب الأحيان تجاه القضية الوطنية نفسها.

وتماما كما تنبأ روى فى مقاله عام ١٩٢٣ سار سعد زغلول فى طريق الانفصال عن الجماهير الشعبية والتهادن مع الاحتلال..

وحتى عندما تجاوز زيور كل حد وتجاهل الدستور وحل البرلمان وفرض قانونا جديدا للانتخاب فقد اتخذ سعد موقف الاعتدال الشديد فى مهاجمته وتحالف مع عدلى والدستوريين فى محاولة لتسوية الخلاف عن طريق «حسن التفاهم» مع المندوب البريطانى..

وتعلق جريدة الأخبار (الحزب الوطنى) على هذا الموقف قائلة: «ويجب أن لا ننسى فى هذه الحالة أن رجال الأحزاب وإن أظهروا تمسكهم بشرعية البرلمان المنحل إلا أنهم كانوا متمسكين أيضا بأهداب التروى والاعتدال طوال المحادثات المعلومة (المحادثات بين المندوب السامى وعدلى) أملا منهم بأن الخلاف يسوى بينهم وبين المندوب البريطانى بالتى هى أحسن. حتى إذا وجدوا ميلا جديا منه للتسوية شرعوا فى وضع أسسها متهاونين معه بقدر الاستطاعة»[٤].

كذلك دعا فتح الله بركات بصفته رئيس النادى السعدى أعضاء مجلس الشيوخ إلى حفل شاى بالنادى يوم ٨ فبراير ١٩٢٦.. وصدر عن الاجتماع (٧٢ شيخا وأيدهم ٣ بالتلغراف) بيان ضعيف يلوم الحكومة على تصرفاتها.. وبدا الأمر وكأنهم يخاطبون المندوب السامى وهم يختتمون بيانهم قائلين: «... وتفاديا من اشتداد الأزمة وتفاقم الخطر رأينا أن نبادر بتقديم هذا النصح الخالص»(٥).

وتهاجم جريدة الحزب الوطنى (الأخبار) هذا الموقف قائلة: «إنهم يحملون راية التراجع والهزيمة»(٦).

وحتى عندما فاز حزب الوفد بالأغلبية الساحقة فى الانتخابات، وضغط الإنجليز لمنع زعيمه من تولى الوزارة رضخ سعد دون مقاومة تذكر واكتفى بتولى رئاسة مجلس النواب.

.. وفى هذه الأثناء وجهت الدعوة لسعد ليقابل المندوب السامى البريطانى وتمت المقابلة فى ٣٠ مايو. وتروى «الكشكول» بعضا من الحديث الذى تقول انه قد جرى بينهما.

– «سعد: كنت أتوقع أنك تخافنى، ولكن ها أنت مش خايف.

– لويد: ولماذا أخاف منك؟

– سعد: ألست قاتلا؟ الم تتهمونى بأنى قاتل؟ ولكن قد برأتنى والحمد لله المحكمة وبرأت رجالى.

– لويد: كثيرا ما برأت المحاكم مجرمين.. (ثم قال لويد) ماذا نويت أن تكون نحو إنجلترا ونحو الأجانب؟

– سعد: فى نيتى أن أخطب خطبة طويلة أحث فيها على مصادقة الأجانب حتى الإنجليز.

– لويد: أظن أنك تريد أن تقول و«على الأخص» الإنجليز؟

– سعد: بل قصدت «حتى» الإنجليز»(٧).

وهكذا فإن الفارق بين «على الأخص الإنجليز» و«حتى الإنجليز» هو بالضبط الفارق بين زيور وسعد زغلول.

لكن اليسار العالمى والمحلى لم يكن بحاجة لانتظار كل هذه الخطوات المتهادنة من سعد زغلول وقيادة حزب الوفد، فثمة أحداث أخرى جذبت الكومنترن واليسار العالمى ككل إلى محور العداء لبرجوازية المستعمرات وأشباه المستعمرات واتهامها بالارتماء فى أحضان

الاستعمار، ولم تكن مواقف سعد زغلول سوى أدلة فرعية تؤكد صحة التحليل العام..

فكان ستالين قد أكد «إنه فى بلدان مثل مصر والصين حيث البرجوازية المحلية قد انقسمت فعلا إلى حزب ثورى وحزب متهادن وحيث دعم الحزب المتهادن علاقاته الوثيقة بالإمبريالية.. فإن الشيوعيين فى بلدان كهذه لا يمكنهم أن يرفعوا شعار الجبهة المتحدة ضد الإمبريالية. بل تعين عليهم أن يعبروا مرحلة الجبهة الوطنية المتحدة إلى مرحلة انتهاج سياسة الكتلة الثورية بين العمال والبرجوازية الصغيرة (الفلاحين)»[٨].

ثم جاء المؤتمر السادس للكومنترن ليكرس هذه السياسة ويجعل منها منهجا عاما للحركة الشيوعية العالمية..

والحقيقة أن هذا الموقف كان يمثل فى الأساس رد فعل لخيانة شان كاى شيك لقضية الجبهة الوطنية فى الصين، ولقد أثرت خيانة كاى شيك للقضية الوطنية على تفكير الدولية الثالثة ككل.

وقد عقد المؤتمر السادس للكومنترن فى إطار التأثر بهذه التجربة. وعقد المؤتمر ١٢ جلسة مهمة لمناقشة قضية المستعمرات والموقف فى الصين. وخاينة شان كاى شيك.. ثم صدرت أحكام معممة على كل الأحزاب وهوجمت البرجوازيات المحلية عموما. وانعكس ذلك على مصر وإندونيسيا، واعتبر الوفد قوة معادية للثورة وكان هذا خطأ فادحا. وكان الخطأ الآخر أنه تحت شعار الهجوم على البرجوازية امتد الهجوم إلى أجزاء من البرجوازية الصغيرة[٩].

ويقول والتر لاكور إن فازليف قد تحدث فى المؤتمر السادس للكومنترن قائلا: «إن حزب الوفد هو أعدى أعداء العمال والفلاحين، والشيوعيون مدعوون لأن يوجهوا إليه حربا مميتة»[١٠].

وعلى أية حال فإن دراسة القرارات والوثائق الخاصة بالمؤتمر السادس للكومنترن توحى بأن هذا الاتجاه المناهض تماما للبرجوازية كان سائدا بالفعل.. وفيما يتعلق بواجبات الحزب الشيوعى المصرى تنص قرارات المؤتمر على ما يلى: «إن الحزب الشيوعى المصرى يلعب دورا هاما فى حركة التحرر الوطنى ويعتمد فى تنظيمه على البروليتاريا. والنقابات التى تضم العمال المصريين هى مصدر الطلائع والقيادات. إن الحزب الشيوعى المصرى يرى أن واجبه الرئيسى دعم النقابات لكن هناك خطر خضوع النقابات للبرجوازية

ويتعين على الحزب إيجاد علاقات وثيقة بالعمال الزراعيين ومحاولة تنظيمهم.. وعلى أساس النواقص فى هذين الميدانين بالذات كان الضعف الذى يعانى منه الحزب الشيوعى المصرى»[١١].

إن تحديد مثل هذه الواجبات القاطعة فى بلد شبه مستعمر كمصر دون ذكر - ولو بإشارة عابرة - إلى ضرورة السعى لتأسيس جبهة وطنية مناهضة للاستعمار يمكنه أن يوضح طبيعة هذا الخط المنعزل..

لكننا لا يمكننا أن نسوق اللوم كله إلى قرارات المؤتمر السادس فإن قيادة الوفد كانت قد اتخذت بالفعل موقفا متهادنا مع المستعمر، وقد استخدمت كل نفوذها - عندما كانت فى السلطة - ضد الحزب، واستمرت فى حملة العداء ضده حتى وهى خارج الحكم.

ومن هنا كان موقف الحزب الشيوعى المصرى الذى سعى فى البداية إلى تكوين «جبهة من العمال والفلاحين» متجاهلا البرجوازية الوطنية سواء تلك الموجودة فى صفوف الوفد أو فى التجمعات الحزبية الأخرى.

وفى الانتخابات التى أجراها زيور باشا أسس الشيوعيون «لجنة الدفاع عن حقوق العمال والفلاحين» وقد ضمنت اللجنة بيانها الأول برنامجا يتضمن واحدا وعشرين مطلبا ودعت مرشحى العمال - وكان عددهم ١٢ مرشحا - إلى تبنى هذا البرنامج وناشدت العمال والفلاحين «ألا يعطوا أصواتهم لأى شخص لا يقبل هذا البرنامج»[١٢].

كذلك هاجمت مجلة «الحساب» قيادة حزب الوفد واتهمتها بالتهادن مع الاستعمار وقد جاء فى إحدى مقالاتها: «إن زعماء الحركة الوطنية أنفسهم لم يحسنوا التصرف عندما هبت هذه الأمة النشيطة مطالبة بحقوقها مدافعة عن استقلالها وحريتها فهم اغتنموا فرصة نهوضها ليضعوا أنفسهم فى مقدمة الصفوف وعلى رأس القيادة ولكن أين الخطط التى وضعوها لاستمرار الجهاد والتقدم شيئا فشيئا فى سبيل الغاية القصوى وهى الاستقلال التام؟ وأين هى المطالب المحددة تحديدا دقيقا والتى دعوا الشعب إلى التمسك بها وجعلها ميثاقا وطنيا وعهدا مقدسا؟ بل أين ما وعدوا به الفلاح الذى حمل عبء النهضة المصرية على كتفيه القويتين؟ وأين وعودهم للعامل الذى قذف بنفسه فى أتون ثورة ١٩١٩ فالتهمته نيرانها؟... لم يفعلوا شيئا من ذلك».

ثم تمضى مجلة الحساب قائلة: «ولولا جبن الوفد المصرى وخوفه، ولولا معرفة الإنجليز بجبنه وخوفه لما تجاسروا قط بل لما فكروا قط بامتهان حقوق مصر بعدما وجدوا من

عملها المدمر عام ١٩١٩. ولما أقدموا على ما أقدموا عليه من الاستهتار بالأمة هذا الاستهتار الذى نعانى مرارته حتى الآن»[١٣].

على أن الحزب - برغم ذلك كله - لم يسقط الوفد من حسابه تماما، بل حاول أن يقيم نوعا من العلاقة مع القواعد الثورية لحزب الوفد.

ولقد كان الحزب يمتلك فرصا عديدة لذلك.

فهناك فى صفوف قادته ولجنته المركزية على وجه التحديد عناصر مثل رفيق جبور المحرر فى جريدة النظام الوفدية والذى ظل لفترة طويلة معدودا - فى نظر الكثيرين - كواحد من الوفديين المرموقين.

كذلك فإن الشيوعيين الذين أرسلهم سعد زغلول إلى السجن سرعان ما التقوا داخله بالشباب الوفدى الذى ساقته حكومة زيور إلى هناك بتهم شتى أخطرها المشاركة فى حملة الاغتيالات السياسية. وثمة روايات حول علاقات عديدة من سجناء الوفد فى هذه الفترة بزملائهم فى السجن من الشيوعيين، وقد ركزت الروايات حول شخصيات مهمة مثل النقراشى وأحمد ماهر.

وعلى أية حال فإن هذه المحاولة المتواضعة قد لقيت تحفزا وهجوما عنيفا من سلطات الاحتلال ومن الرجعية المصرية.. فنشرت المورننج بوست الإنجليزية مقالا لمراسلها فى القاهرة يقول: «والظاهر أنه توجد روابط بين مساعى البلاشفة وحملة القتل الموجهة ضد البريطانيين. وبين المقبوض عليهم اثنان من محررى الصحف الوفدية»[١٤].

وقالت الديلى تلغراف: «وأعظم ما يلفت الانظار فيما اكتشفه البوليس، هو ما يدل على العلاقة الوثيقة بين دسائس البلاشفة وحملة القتل، وعلاقتهم أيضا بالوفد لأنه يوجد بين المقبوض عليهم طاهر أفندى العربى المحرر بجريدة كوكب الشرق ورفيق أفندى جبور المحرر بجريدة النظام وهى من الصحف الوفدية أيضا. والمعروف فوق ما تقدم أن شقيق أولاد عنايت الذى لا يزال فى برلين طالبا على اتصال دائم بمندوب السوفييت هناك»[١٥].

والحقيقة أن قصة شقيق أولاد عنايت هذه قد استخدمت فى محاولة واضحة للتحريض ضد الشيوعيين ومحاولة الإيهام بضلوعهم فى عمليات الإرهاب..

«فقد جاء فى مرافعة النيابة ضد عبدالفتاح وعبدالحميد عنايت فى قضية السردار أن أخا لهما هو عبدالخالق عنايت قد سافر إلى أوروبا فى عام ١٩٢٣ بحجة تلقى دراسة

الطب.. وقد وصل إلى النائب العام من إدارة الأمن العام تقريرا وصل إلى هذه الإدارة من برلين مذكور فيه «عاد عبدالخالق عنايت فى أواخر شهر يناير ١٩٢٥ ومنذ عودته إليه زار عدة مدن ألمانية من غير أن يكون عليه أية رقابة، وهو الآن متغيب عن برلين ولو أنه من المنتظر عودته إليها قريبا. وفى عزمه التوجه إلى إستكهولم لحضور مؤتمر الطلبة الشرقيين، وكذلك التوجه إلى موسكو إما فى شهر مايو أو يونيو.. وهو على اتصال بالمصريين فى الحزب الوطنى المتطرف.. وهو كثير الزيارة لسفارة حكومة السوفييت ويصله بواسطتها نقود، وقيل إن جماعة الشيوعية الدولية تنظر إليه بعين الريبة كوطنى وكأحد دعاة الجامعة الإسلامية شديدى التحمس، وهو على أتم وفاق مع جرونشتين ولينتسكى وهو متعلم تعليما حسنا إلا انه شديد الكراهية للبريطانيين والأوروبيين»[١٦].

بل إن سعد زغلول نفسه ما لبث أن اتهُم بتحبيذ الشيوعية، الأمر الذى دفع زغلول إلى أن يذكر متهميه «بأن وزارة الشعب كانت عنيفة على الشيوعيين وأنها أرسلت الكثيرين منهم إلى القضاء»[١٧].

كذلك فإن الشباب المتحمس فى حزب الوفد، وخاصة أمثال النقراشى وأحمد ماهر ما لبثوا هم أيضا أن انجرفوا بعيدا فى السياسة البرجوازية باحثين لأنفسهم عن طريق خاص قادهم إلى أعلى مناصب السلطة.

وبرغم الأقاصيص التى حيكت حول علاقة الوفد بالحزب الشيوعى فى ذلك الحين، وكلها مرتبطة باسمين محددين أحدهما رفيق جبور والآخر طاهر العربى.. فإن الحقيقة هى أن كلا الشخصين لم يكن وفديا فرفيق جبور كان يساريا قديما وأحد قادة التجمعات اللبنانية فى مصر «جمعية لبنان الفتى» وكان عضوا بالحزب الشيوعى منذ فترة طويلة رغم أنه عمل محررا فى مجلة النظام ذات الميول الوفدية. ورغم أنه كان على علاقة وثيقة بالوفد.

أما طاهر العربى[١٨] فلم يكن وفديا، على الإطلاق فقد قبض عليه فى عام ١٩١٢ بتهمة تدبير محاولة لاغتيال كتشنر حيث بقى اثنى عشر عاما بالسجن. وكان عند القبض عليه عضوا فى الحزب الوطنى وكان تدبير محاولة الاغتيال يجرى بإشراف ودعم من بعض قادة الحزب الوطنى.

وبعد أن أفرج عنه وحصل على مبلغ ٢٢٣ قرشا أجرا لعمله فى السجون طوال الفترة التى قضاها فيها قرر أن يتبرع بها للحزب الوطنى فوجه رسالة إلى جريدة اللواء يقول فيها:

«.. وحيث إن هذا المبلغ على ضآلته له فى نفسى من القداسة والتكريم ما يجعلنى أضن به أن يصرف فى غير وجه الوطن والجهاد فى سبيل تحريره.

حيث إنى لا أعترف ولا أعرف - إلى هذا الوقت على الأقل - غير الحزب الوطنى هيئة حملت لواء الجهاد من فجر النهضة الوطنية إلى اليوم.

لهذا كتبت إلى المحافظة أرجو إرسال هذا المبلغ تحويلا إلى خزينة الحزب الوطنى وأكتب هذا إلى عزتكم راجيا أن تتفضلوا بقبوله هدية من مجاهد قديم إلى حزب المجاهدين الأوفياء»[١٩].

وقد عمل العربى بعد ذلك لفترة محررا بجريدة اللواء.

وثمة واقعة أخرى يرويها العربى نفسه تؤكد أنه لم يكن وفديا وأن الوفد لم يكن يعتبره وفديا.. فشفيق منصور يوجه دعوة إلى المسجونين السياسيين لمقابلة سعد زغلول عندما كان رئيسا للوزراء لبحث حالتهم وتدبير أعمال لهم. ويذهب طاهر العربى مع الذاهبين لكن زغلول يشطب اسمه بالقلم الأحمر قائلا لشفيق منصور: «ده مش بتاعنا. لما نشوف بتوعنا نبقى نبحث عن غيرهم»[٢٠].

وليس ممكنا بعد ذلك أن نتصور أن العربى كان وفديا، لكنه عمل ضمن تنقلاته العديدة من عمل إلى آخر محررا فى كوكب الشرق الوفدية.. وقد قبض عليه عام ١٩٢٥ متهما بالشيوعية وهو يعمل بها.

بل إن طاهر العربى نفسه ما لبث تحت وطأة الحاجة لتملق السلطة أن اعترف كتابة بأنه فى علاقته مع الحزب الشيوعى فى ذلك الحين كان مجرد جاسوس لجهاز الأمن.. فقد وجه رسالة إلى على ماهر باشا رئيس الديوان الملكى فى ٣١ مايو ١٩٣٩ اعترف فيها بما يلى:

- «فى مايو ١٩٢٥ صادفت رجلا شيوعيا خطرا جدا يدعى قسطنطين فايس هو رئيس الدولية الثالثة فى الشرق وكان محكوما عليه بالإعدام فى إيطاليا باسم أفيجدور، وكان البحث جاريا عنه فى أنحاء مصر حيث دخل إليها بجواز مزور - قابلته ولم أكن أعلم شيئا عن حقيقة أمره بل قادنى إليه زميل صحفى اسمه رفيق جبور وعرفنى بأنه صحفى إنجليزى يدرس شئون العمال فى مصر. وكان الرجل يجيد عدة لغات وسرعان ما توثقت بيننا عرى الصداقة، وتبادلنا شتى الأحاديث وشممت رائحة كريهة لم آلفها من قبل إذ لم

أكن سمعت أو قرأت شيئا عن الشيوعية قبل ذلك وكنت حديث العهد بمغادرة السجن، سمعته يتحدث بكل سوء عن الملكية والرأسمالية.. وقابلت صديقا ضابطا بوزارة الداخلية هو كمال أفندى حشيش. وتحدثت عن هذا الأجنبى الصحفى الذى يدرس شئون العمال، ولم أكن عرفت عنه شيئا من الناحية الشيوعية وكانت صورته معى أهداها إلى فأطلعت الضابط عليها، وما كدت أفعل حتى انتفض كمن مسته الكهرباء -- وقبلنى فى وجنتى وكاد يرقص من شدة الفرح وفى اليوم التالى زارنى فى منزلى واستدعانى لمقابلة سعادة القيسى باشا مدير الأمن العام وكان معه كامل بك الرحمانى.. فأخذا يقنعانى بالعمل معهما فى مكافحة الشيوعية.. ولم تمض بضعة شهور حتى كنت موضع سر هذا الزعيم الشيوعى وعرفت كل شىء عن هذه العصابة الخطيرة الكبيرة الدولية، وفى ساعة مبكرة من الصباح قبض البوليس فى أنحاء مصر على أكثر من ثلاثين شيوعيا مصريين وأجانب.. وقبض علىَّ أيضا بينهم، ودخلت السجن وبقيت فيه شهرين كاملين، ثم مثلت أمام المحكمة وشهدت عليهم.. ولم أنل أى جزاء مادى ولا أدبى»[٢١].

وعلى أية حال فإن من الواضح أن قصة علاقة الوفد بالحزب الشيوعى فى ذلك الحين كانت قصة ملفقة لفقها المستعمرون والأحزاب الرجعية كسبيل لضرب حزب الوفد نفسه.

وهكذا فإن جنوح قيادة حزب الوفد نحو التهادن مع الاستعمار، ورفضه أى منهج ثورى أو حتى وطنى حق فى مواجهة الإنجليز قد اجبر الحزب الشيوعى على السير فى الطريق الوعر: طريق معاداة الوفد.. معرضا نفسه لعزلة شديدة.. كذلك لم يدع أمامه أية فرصة للخيار فى التحالف فلم يبق أمامه سوى «الحزب الوطنى».. فكان تحالف المستضعفين.

وكان م. ن. روى قد وصف فى مقاله «الانقلاب السياسى فى مصر»[٢٢] أعضاء الحزب الوطنى بأنهم «متطرفو البرجوازية الصغيرة الثرثارين».

وقال عنه أيضا: «إن تكوينه الاجتماعى – بعد إعادة تنظيمه واستعادته شبابه قد اتجه ناحية التجار الصغار والمثقفين المطحونين والحرفيين المستغلين وفقراء الفلاحين والبروليتاريا.. لكنه لم يكن يضم من هؤلاء وأولئك إلا النذر اليسير».

ولقد رأينا كيف استخدم الحزب الوطنى كل قوته فى الهجوم على سياسة الاعتدال والتهادن لكنه قد عجز بالفعل عن أن يرفع شعارات محددة ذات قدرة فعلية على تعبئة الجماهر فظل أسيرا لمعارضة جوفاء لم تستطع أن تثمر شيئا جادا.

ولقد كان حجم الحزب الوطنى أقل بكثير من شعاراته الطنانة، الأمر الذى جعل من هذه الشعارات - التى كانت مجرد تشدد لفظى لا يصاحبه أى موقف نضالى - مثارا لسخرية الكثيرين وخاصة الصحف الوفدية.

وفى مقال افتتاحى نشرته روزاليوسف يمكننا أن نطالع نماذج من السخرية مثل: «للحزب الوطنى أن يطيل النظر ما شاء فى مرآته المسحورة وأن يرى هناك جسمه (القوزعة) عملاقا طويلا يقف على باب البلد موقف الديدبان ليخفر حقوقها وكرامتها ودستورها بالفأس والنبوت.. وله علينا ما دام مفتوح العين فى موقفه هذا - وإن لم تقدم فتحتها أو تؤخر - ألا نعكر عليه من خياله هذا بأكثر من ابتسامة السخرية من مجهوده الهزيل.

طاب نومكم يا رجال الحزب الوطنى.. وغطوا أنفسكم جيدا فالبرد - يحرسكم الله - قاتل فى هذه الأيام»[٢٣].

وعلى أية حال فما لبث قادة الحزب الوطنى - عندما اشتدت الأزمة فى عام ١٩٢٨ - أن غادروا مصر واحدا بعد الآخر.. ولم يبق سوى عبدالحميد سعيد الذى رسمت روزا اليوسف صورته على الغلاف وهو مرتبك ساخط ويصيح «فكرى أباظة هرب وحافظ رمضان هرب إلى روما، وأنا يعنى اللى اقعد وحدى هنا؟»[٢٤].

على هذا الضوء يمكننا أن نقدر قيمة التحالف الذى نشأ بين اليسار والحزب الوطنى والذى تمثل فى دعوة الحزب وزعيمه حافظ رمضان بالتحديد للمشاركة فى «عصبة النضال ضد الإمبريالية» والاتصالات التى قام بها ممثلو العصبة مع عبدالحميد سعيد والشيخ أبوالعيون وغيرهما، فلقد كان تحالفا مع حفنة معزولة لا أثر جماهيرى لها..

وتأتى مشارف الثلاثينيات بما حملته من أحداث ومن محاولات الإقطاعيين وكبار الرأسماليين لفرض حكم دكتاتورى على مصر وكان من المفروض أن يؤدى قيام مثل هذا الحكم الدكتاتورى والمناهض للدستور إلى بعض التغيير فى مواقف الحزب الشيوعى تجاه الأحزاب الأخرى، وإلى مزيد من الوضوح تجاه دور حزب الوفد والحزب الوطنى لتطرح من جديد امكانية قيام تحالف وطنى واسع.

فعندما وصل محمد محمود إلى السلطة وفرض حكم «القبضة الحديدية»، وعندما جاء صدقى ليلغى دستور ١٩٢٣ وأقام حكما إرهابيا مستبدا كان من المفترض أن يلجأ حزب

الوفد إلى الجماهير وأن يقوم تبعا لذلك تحالف وطنى ديمقراطى يضم كل القوى المطالبة بالدستور واحترام إرادة الشعب.

لكن الثوريين المصريين فوجئوا بأن حزب الوفد يلعب دوره على المسرح «من أجل متفرج واحد هو المندوب السامى البريطانى لورد لويد. فقد كان كل من محمد محمود والنحاس باشا يحاول أن يقنع المندوب السامى بأن حكم مصر ممكن فقط بواسطته هو شخصيا»[٢٥].

واكتشفوا أيضا «أن الوفد فى صراعه ضد الحكومة الحالية يرفع شعارا سياسيا محدودا هو عودة الدستور، لكن الوفد لم يكن يضع فى اعتباره قوى الجماهير المصرية ونضالها ضد الدكتاتورية الحالية وإنما كان يعلق كل آماله على انتصار حزب العمال الإنجليزى.

بل إن الوفد قد حاول أيضا أن يلعب على الخلافات فى وجهات النظر داخل الوزارة البريطانية ذاتها، وعقب انقلاب ١٩ يوليو افتتح الوفد فى لندن مكتبا سياسيا خاصا (حتى ديسمبر ١٩٢٨) برئاسة وليم مكرم عبيد. ولنفس الغرض أيضا أصدر الوفد جريدة فى لندن باللغة الإنجليزية تسمى «مصر».

كذلك فإن سياسيى حزب الوفد عندما كانوا يهتمون بالجماهير فإنما كانوا يفعلون ذلك لمجرد تحقيق أهداف الحزب، وبشرط أساسى هو ألا تتمكن الجماهير من تحقيق أى دور إيجابى فى التأثير على أعمال الوفد أو دوره.

إن رئيس حزب الوفد النحاس باشا قد ركز فى خطابه الذى ألقاه فى القاهرة بمناسبة مرور عشرة أعوام على تأسيس حزب الوفد على إصرار الحزب على عدم فتح الباب أمام الصراع الطبقى الذى وصفه بأنه «يقود الشعب إلى الهاوية والهلاك»[٢٦].

وهكذا فإن تطورات الأحداث، والمواقف المتعاقبة التى اتخذها حزب الوفد تجاه الجماهير قد اقتادت الحزب الشيوعى إلى موقف بعيد تماما عن فكرة التحالف معه. ومرة أخرى تتساقط فكرة إقامة تحالف وطنى يضم القوى المطالبة بالدستور واحترام القانون وحريات الشعب.

أما «الحزب الوطنى» فقد كشف هو أيضا عن ضعف وتخاذل شديدين، وما لبث الحزب الشيوعى أن أخضعه هو أيضا لمحاولات تحليل صارمة استندت فى كثير من الأحيان إلى التصرفات الفعلية التى صدرت عن قادة هذا الحزب.

وكما اتهمت الصحافة الوفدية الحزب الوطنى بأنه حزب «ثرثار» فإن عدة سنوات من التحالف المفترض معه قد كشفت للحزب الشيوعى صدق هذا الوصف.

وما لبث الشيوعيون أن وصفوه فى مقالاتهم بأنه «الحزب الذى يثرثر كثيرا» بل وصفوا قبوله للتحالف معهم بأنه مجرد استعراض مظهرى، وقالوا: «لقد قام قادة الحزب الوطنى تحت ضغط العناصر الراديكالية فى البرجوازية الصغيرة باستعراضات ثورية فى مظهرها فشاركوا فى تكوين فرع «عصبة النضال ضد الإمبريالية» لكن مثل هذه الاستعراضات المظهرية لم تغير ولو لأدنى درجة الخط السياسى للحزب»[٢٧].

والآن فإنه لم يعد أمام الحزب الشيوعى إلا أن يحاول استخلاص بعض الدروس من المواقف التى اتخذتها أحزاب البرجوازية المصرية المختلفة.

ويمضى أ. الجبالى محاولا أن يستخلص هذه الدروس فيقول:

«لقد مثّل قادة الحزب الوطنى لعدة سنوات دور حماة الجماهير الكادحة وحاولت البرجوازية الصغيرة الراديكالية أن تقنع الجماهير بأنها لم تبتعد عن خشبة المسرح. لكن الصراع الدائر وسط صفوف أعضاء الحزب الوطنى لم يكشف فقط عن مدى الضعف السياسى لقادة الحزب وإنما كشف أيضا عن ضرورة البحث عن «مسارات» جديدة لحركة التحرر الوطنى».

فما هى هذه «المسارات الجديدة» التى يدعو إليها الحزب فى مجال «التحالف الوطنى» يقول الجبالى: «وكلما تم الإسراع «بتفجير» الحزب الوطنى من الداخل كلما وجدت العناصر الشريفة داخل هذا الحزب – بسرعة أكبر – طريقها للسعى نحو تأسيس «الجبهة الثورية الوطنية الموحدة» تحت قيادة حزب الطبقة العاملة»[٢٨].

وهكذا فإن لجوء الوفد والحزب الوطنى نحو سياسة «التهادن» التام والمستمر قد وضع الشيوعيين المصريين فى مأزق حقيقى وسد السبيل أمام أى تحالف وطنى جاد. ودفع الحزب إلى رفع شعار انعزالى يدعو إلى «تفجير» هذه الأحزاب من الداخل وتأسيس «جبهة ثورية وطنية موحدة».

ولسنا نريد أن نلقى اللوم كله على الأطراف المصرية لمعركة التحالف هذه.. ذلك أنه من المتعين علينا أن نذكر أن الكومنترن قد نهج بالفعل فى هذه الفترة منهجا مماثلا.

ولسنا نشك مطلقا فى حتمية تأثر الحزب بموقف الكومنترن هذا، لكن الذى لا شك فيه أيضا أن الأحداث التى كانت تجرى على مسرح السياسة المصرية كانت - فى ذاتها - كافية لأن تشكل وبصورة موضوعية تماما مثل هذا الموقف.

وعلى أية حال فلقد كان على الحزب أن يعانى من وطأة «الحصار» الذى فرضته عليه الأحزاب الوطنية الأخرى نتيجة لسياستها المتخاذلة والمتهادنة.

ويروى لاكور أن أفيجدور قد تحدث فى اجتماع اللجنة التنفيذية للكومنترن عام ١٩٣٤ عن أسباب ضعف الحزب الشيوعى المصرى فقال: «إن الشيوعيين المصريين قد أخفقوا لأن الجماهير كانت تؤمن بالوفد»[٢٩].

وهذا صحيح إلى حد كبير، فلقد ظل الوفد - برغم كل شىء - المنبر الأساسى للتحرك الوطنى المصرى وكان - برغم كل شىء - هدفا للهجمات الرجعية والاستعمار على السواء.

وهكذا كان على الحزب أن يهاجم الوفد ويدين تهادنه وضعفه فى الوقت الذى كان غلاة الرجعيين والسراى وعملاؤها ومن خلفهم سلطات الاحتلال يشنون هم أيضا هجماتهم على الوفد..

ولقد عانى الحزب كثيرا من مثل هذا الموقف.

ولسنا نريد أن ننتقد هذا الموقف، فلقد كانت قيادة الوفد تنهج بالفعل موقفا متخاذلا وبعيدا عن الاعتماد على حركة الجماهير الشعبية، لكننا نعتقد أن الأمر كان بحاجة إلى بعض المرونة - فى مصر بالذات. ودونما ربط الأوضاع فيها ربطا ميكانيكيا بخيانة شان كاى شيك أو حتى بتهادن سعد زغلول نفسه.

وعلى أية حال فإن صفحات هذا الفصل ليست بأية حال محاولة لتقييم دور حزب الوفد، ولا تستهدف بأية حال التقليل من دوره فى الحركة الوطنية، وهى أيضا ليست محاولة لتقييم دور الحزب الوطنى وإنما هى فى الأساس محاولة لإلقاء نظرة على خطة التحالف التى نهجها اليسار المصرى والعوامل الموضوعية التى اجبرته على إقامة تحالف بين المستضعفين انتهى بطبيعة الحال إلى لا شىء..

لكن الثلاثينيات قد شهدت محاولات أخرى لإقامة تحالفات أكثر فعالية من بينها التحالف مع القوى النقابية الموالية لعباس حليم من أجل إنشاء حرب عمالى..

والتحالف مع القوى المناهضة للفاشية وسط التجمعات الأجنبية..

لكن ذلك كله - بالرغم من أهميته - كان يجرى على هامش الأحداث وكان يقلل من فاعليته إلى حد كبير أنه كان يجرى بمعزل عن حزب الوفد..

ومرة أخرى لم يكن ذلك خطأ من اليسار وحده بل كان رد فعل طبيعى لإصرار قادة الوفد على انتهاج سياسة الاعتدال والتهادن مع الاستعمار وتشبثهم المزرى بسياسة العداء لليسار ورفض أى تحالف معه.

الهوامش

(١) الأهرام – ١٤ ديسمبر ١٩٢١.

(*) م. ن. روى – أحد مؤسسى الحزبى الشيوعى الهندى، وأحد العناصر التى لعبت دورا مهما فى الكومنترن ولقد كانت مناقشات روى مع لينين حول دور الحركة الوطنية فى المستعمرات ذات أهمية خاصة فى الأدبيات الماركسية.

(٢) International Press Correspondence. 21/1/1923.

(٣) الأهرام ١٩٢٤/٢/١٩. حيثيات الحكم الصادر عن محكمة جنايات الإسكندرية فى قضية الشيوعية.

(٤) الأخبار – ٧ يناير ١٩٢٦.

(٥) أحمد شفيق باشا. حوليات مصر السياسية جـ٣. طبعة سبتمبر ١٩٢٩ ص٥٣.

(٦) الأخبار – ٩ فبراير ١٩٢٦.

(٧) الكشكول – ١١ يونيو ١٩٢٦.

(٨) والتر لاكور. الاتحاد السوفييتى والشرق الأوسط – ترجمة المكتب التجارى ببيروت. طبعة أغسطس ١٩٥٩ ص٣٨ نقلا عن ستالين. مجموعة الأعمال. الجزء السابع – الواجبات السياسية لجامعة شعوب الشرق.

(٩) هانز بياشر – تقرير بالألمانية حول الدور التاريخى للكومنترن – قدم للندوة العالمية التى عقدت فى موسكو بمناسبة الذكرى الخمسين لتأسيس الكومنترن.

(١٠) والتر لاكور – الاتحاد السوفييتى والشرق الأوسط – المرجع السابق ص١٢٠ – (وقد أورد إلياس مرقص – تاريخ الأحزاب الشيوعية فى الوطن العربى. القسم الأول – الطبعة الأولى – ١٩٦٤ – نفس هذا النص فى ص٢٦ دون أن يشير إلى مصدره والمرجح أنه نقله عن لاكير).

(١١) بروتوكول المؤتمر السادس للكومنترن – الطبعة الألمانية الجزء الرابع ص١٩٥.

(١٢) راجع النص الكامل للبرنامج فى الملاحق.

(١٣) مجلة الحساب – ٨ مايو ١٩٢٥. مقال تأسيس حزب للطبقة العاملة من عمال وفلاحين. (وقد نشرت بعض هذه المقالات فى – عبدالمنعم الغزالى – المرجع السابق ص٩٧ وما بعدها).

(١٤) الأهرام ١٩٢٥/٦/٣.

(١٥) الأهرام ١٩٢٥/٨/١.

(١٦) د. محمود متولى – مصر وقضايا الاغتيالات السياسية – كتاب الحرية – نوفمبر ١٩٨٥ (القاهرة) – ص١٤١.

(١٧) الأخبار ١٩٣٦/٨/٢٩ نقلا عن مذكرات سعد زغلول عن يوم ١٩٢٥/٦/٤.

(١٨) أورد عبدالعظيم محمد رمضان – تطور الحركة الوطنية فى مصر – اسمه أكثر من مرة على أنه طاهر العرابى ص٥٥٢ والاسم الصحيح محمود طاهر العربى.

(١٩) اللواء ١٩٢٣/١٠/١٤.

(٢٠) محمود طاهر العربى – هذا المجتمع الظالم – الطبعة الأولى – مطبعة دار المستقبل ص١٧٩.
(٢١) دار الوثائق المصرية – محفظه ٤ داخلية عربى – ملف ٦ – وثيقة أصلية بخط محمود طاهر العربى عبارة عن خطاب موجه إلى على ماهر باشا رئيس الديوان الملكى.
(٢٢) International Press Correspondance.
(٢٣) روزاليوسف – ٢ يوليو ١٩٢٨.
(٢٤) روزاليوسف. المرجع السابق.
(٢٥) ريفوليوسيونى فوستوك (الشرق الثورى) – مقال بعنوان «بلا مخرج» – رسالة من مصر – بقلم أ.الجبالى – مؤرخة فى نوفمبر ١٩٢٧ العدد ١-٢ عام ١٩٣٢ الطبعة الروسية. (راجع النص الكامل بالملاحق).
(٢٦) ريفولوسيونى فوستوك – مقال «مصر بعد الانقلاب» بقلم أ. شامى – المرجع السابق ص٢٨٤.
(٢٧) ريفولوسيونى فوستوك، مقال بعنوان «خطاب من مصر – الحزب الذى يثرثر كثيرا» بقلم أ. الجبالى مؤرخ فى مايو ١٩٢٩ ص٢٨٨ من المرجع السابق. (راجع النص الكامل بالملاحق).
(٢٨) المرجع السابق. ص٢٩٠.
(٢٩) والتر لاكور – الاتحاد السوفييتى والشرق الأوسط – المرجع السابق ص١٢١.